المبحث الثاني
فائدة التصوف وأهميتهُ وأقوال الأئمة فيه

المطلب الأول: فائدته وأهميته

تنبع أهمية هذا العلم وفائدتهُ من خلال موضوعه ومباحثه التي يتناولها، فهو يتناول النفس الإنسانية وآفاتها وعلاجها، والقلب وطرق تحليته بالفضائل، وسبل تنقيته من الرذائل، والعبادات وأسباب قبولها عند الله تعالى حتى يصل العبد بها إلى مقام الإحسان، والإحسان هو الركن الثالث من أركان هذا الدين التي سأل عنها سيدنا جبريل عليه السلام خير الخلق سيدنا محمداً ﷺ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

فوظيفة الرسول ﷺ هي تلاوة القرآن وتعليم القرآن والحكمة، وهي سُنة الرسول ﷺ على ما ذكرهُ المفسرون، والتزكية: تُطهِّر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنـــزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتكم من الشرك، إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع، إلى التحاب والتواصل والتوادد[1].

---

(١) ينظر: تفسير البحر المحيط: ٦١٨/١. وينظر: تفسير القـــرآن العظـــيم: ٢٤٤/١، وصفوة التفاسير: ١٠٦/١.

ولعل سيرة الرسول ﷺ في دعوتهِ ورسالتهِ للأمة خير مثال، فقد كان ﷺ يدعو إلى الله سبحانه، بتلاوة القرآن تارة، وبتعليمهِ للقرآن بأقواله وأفعالهِ وتقريراته تارة، وبالتزكية تارة أخرى، وقصة ذلك الشاب الذي جاء يطلب الإذن بالزنا من الرسول ﷺ فقد جاء في المسند عن أبي إمامة رضي الله عنه قال: [إنَّ فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ائذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه قالوا مه مه فقال: «ادنه» فدنا منه قريباً فقال: «اجلس قال أتحبه لأمك» قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبه لابنتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك» قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم» قال: «أفتحبه لأختك» قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» قال: «أفتحبه لعمتك قال لا والله جعلني الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال: «أفتحبه لخالتك» قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» قال فوضع يده عليه، وقال: «اللّهم اغفر ذنبه وطهِّر قلبه، وحصن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء][1].

وقصة سيدنا أُبي بن كعب رضي الله عنه[2] لما دخل الشك والتكذيب في قلبهِ

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣٦/٥٤٥، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ابن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج الأكبر الأنصاري عن أنس أن النبي ﷺ قال لأبى بن كعب أن الله أمرني أن أقريك القرآن واقرأ عليك القرآن قال أُبى وسمّاني لك قال: نعم قال: وقد ذكرت عند ربي العالمين قال: نعم فذرفت عيناه مات أبي بن كعب في خلافة عمر بن الخطاب وقال عبيد الله بن سعد الزهري: مات قبل عثمان وصلى عليه عثمان سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين، ينظر: الاستيعاب: ١-٢١، وتاريخ بغداد: ٢/٣٢٨.

بسبب اختلاف بعض الصحابة في تلاوة القرآن وإقرار الرسول ﷺ لتلك الاختلافات، فقال أُبي بن كعب رضي الله عنه: [فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً، وكأني انظر إلى الله عز وجل فرقاً][1] فيا لها من تزكية وهداية نبوية نقلت العبد من أدنى درجات الشك إلى أعلى درجات الإيمان في ذروة مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنهُ يَراك.

فهل وضع يدهِ الشريفة على صدر ذلك الشاب وضربه لصدر أبي ابن كعب هي قراءة للقرآن أو تعليم للقرآن والسُنة، أو هو حال التزكية، إذاً فالتزكية شيء وتعليم القرآن والسُنة وقراءتهما شيء آخر، وبذلك يصبح المراد من قولهِ تعالى: (**يُزَكِّيهِمْ**) «يعطيهم حال التزكية ففرق كبير بين علم التزكية وحال التزكية، كما هو الفرق بين علم الصحة وحال الصحة، والجمع بينهما هو الكمال»[2].

فعلم التصوف يبحث في علم التزكية الموصل إلى حال التزكية، كما وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقالت: [كان خلقهُ القرآن][3] وحال التزكية يوصل العبد إلى مقام الإحسان وهو القسم الثالث من أقسام هذا الدين.

من خلال ما تقدم تظهر أهمية هذا العِلم للفرد المسلم وأثرهُ في تقييم السلوك، ولهذا نجد علماء الإسلام يؤكدون عليه ويوصون بأخذهِ من المتصفين بالعلم والحكمة.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم: ١٠٩/٣.

(٢) حقائق عن التصوف: ٣٢-٣٣.

(٣) رواه أحمد رقم: ٢٤٦٤٥: ٩١/٦، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

لم يكن التصوف معروفاً في عهد رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ ولا في عصر التابعين رحمهم الله، وإن كانت حقيقته معروفة، لأنَّ جل ما يصبوا إليه المرء هو الانتساب إلى الصحابة ﷺ ثم إلى التابعين رحمهم الله، وكفى بالمرءِ شرفاً أن ينتسب إلى محمد ﷺ وإلى آله وأصحابه ﷺ بالاتباع.

وفي القرن الأول لم يكن يعرف اسم التصوف، بل كان أهله يعرفون باسم الزُّهاد والنسَّاك والبكَّائين وليس باسم الصوفية، وكان اعتقادهم صافياً وإيمانهم نقياً خالصاً، وما كان ابتعادهم عن الدنيا إلا لارتياعهم من عذاب الآخرة، وهرعوا إلى الكهوف والمغاور ورؤوس الجبال حيث الوحدة الصافية والانعزال عن صخب الحياة المادية[1].

ثم بعد مضي عصر الصحابة والتابعين وفي أواخر القرن الثاني الهجري بدأ لفظ الصوفية يظهر، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (١٦٤- ٢٤١هـ) وأبو سليمان الداراني المتوفى سنة (٢١٥هـ) وقيل إنَّ أول من بني دويرة للصوفية هو بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد المتوفى بعد الخمسين ومائة للهجرة، وهو من أصحاب الحسن البصري، وكان ذلك في البصرة، وإن أول من عرف باسم صوفي في المجتمع الإسلامي هو أبو هاشم الصوفي المتوفى قبل منتصف القرن الثاني الهجري، ويقول عمر رضا كحالة، ورد لفظ الصوفي لقباً مفرداً في النصف الثاني للهجرة؛ إذ نعت به جابر بن حيان الكوفي، وأما صيغة الجمع الصوفية فإنَّها ظهرت فيما انتهى إليه عمر رضا كحالة عام ١٩٩هـ[2].

---

(١) ينظر: شيخ الإسلام وموقفه من أهم الفرق والديانات في عصره: ١٨٧.

(٢) دراسات في الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة: ٢٤٣، مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١١/٥-٢٩، والمنقذ من الضلال: ٢١٥.

• **الأطوار التي مر بها التصوف:**

إذا أهملنا ظهور اللفظ ونظرنا إلى حقيقة التصوف، وهو الترفع عن الملذات فنستطيع أن ندخل عصر الصحابة ﷺ في ذلك فيكون هو الطور الأول.

طور التسامي عن الحياة المادية: ويكون هذا الطور هو عصر الصحابة وهو يتناول القرن الأول الهجري، وأوائل القرن الثاني عصر كبار التابعين، وهذا العصر مليء بأخبار زهد الصحابة ﷺ، وأبرز رجال هذا الطور الخلفاء الراشدون، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكذلك عبد الله بن عباس، وأبو عبيدة ﷺ وغيرهم كثير فهم الذين كان يتنـــزل القرآن بين ظهرانيهم ويتلوه عليهم سيد البشر عليه الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ويبين لهم الرسول ﷺ ويأمرهم قائلاً «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[1]، وإذا رجعنا إلى كتاب حياة الصحابة للكندهلوي ونظرنا في زهد الرسول ﷺ وزهد أصحابه ﷺ لوجدنا ترفعهم عن الدنيا وتزودهم فيها للآخرة ما يفوق الوصف. والملاحظ أنَّ عصر الصحابة ﷺ كان عصر التوازن بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الخلوة والمخالطة، فهم مع ترفعهم عن الانخراط والانغماس في متاع الدنيا إلاّ أنهم لم يعزفوا عن الدنيا بالكلية؛ لأنَّ الإسلام يدعو إلى التوازن والتوسط في الأمور جميعها بلا إفراط ولا تفريط. ولم يدع الإسلام إلى الغلو والتنطع ولا إلى التفرغ الكامل للزهد والاعتكاف عن الجهاد بل هناك نصوص كثيرة تخالف هذا الاتجاه منها قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

---

(١) صحيح البخاري: ٢٣٥٨/٥.

المطلب الثاني: أقوال الأئمة في هذا العلم

لم أذكر في هذا المطلب أقوال وآراء علماء التصوف، ومنهم القشيري في هذا العلم، لأنَّهم أهله وفرسانه، فلا يتصور عقلاً أن يصدر منهم ذم له، إنَّما اكتفيت بأقوال الأئمة المتفق عليهم لدى من أحب التصوف، ومن لم يمل إليه. فقد أكد الأئمة قديماً وحديثاً على أهمية علم التصوف الشرعي، وفائدة صحبة أهله، وهذه لمحة يسيرة إلى تلك الأقوال:

هذه نُبَذٌ من الأقوال والشهادات عن التصوف والصوفية لبعض أكابر علماء الأمة الإسلامية، تسفر اللثام عن أصالة التصوف وامتداده وتجذّره في الممارسة الإسلامية منذ نزول الوحي على سيدنا محمد ﷺ، وأنَّه علم من العلوم الإسلامية المهمة.

يقول الإمام مالك (ت١٧٩هـ): «من تفقه، ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»[(١)].

قال الإمام الشافعي[(٢)] رحمه الله وهو يوصي أهل العلم:

فقيهاً صوفياً فكن ليس واحداً ... فإنّي وحقّ الله إياك انصحُ

فذلك قاسٍ لم يذق قلبهُ تُقىً ... وهذا جهولٌ كيف ذو الجهلِ يصلحُ[(٣)]

---

(١) حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي: ١٩٥/٣، شرح عين العلم وزين الحلم للإمام مُلا علي القاري: ٣٣/١، نقلاً عن كتاب حقائق عن التصوف: ٣٦١-٣٦٢.

(٢) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة سنة (١٥٠هـ) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين. وزار بغداد مرتين. وقصد مصر سنة (١٩٩) فتوفي بها ينظر: الأعلام للزركلي: ٢٦/٦، وينظر: سير أعلام النبلاء: ٥/١٠.

(٣) ديوان الإمام الشافعي: ٢٢.

فهذا الإمام الشافعي يحرص على الاقتداء بالصوفية، ويستفيد منهم ويغترف من معينهم، وكان يقول رحمه الله: «حُبب إليّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف»[1].

يتأكد تعظيم واحترام الإمام الشافعي للصوفية من خلال القصة التالية: «مر طائفة من المتصوفة على أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه في صحن المسجد، فقال الشافعي رضي الله عنه: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما على وجه الأرض في هذه الساعة قوم أكرم على الله عز وجل منهم»[2].

كما أنَّه رحمه الله استفاد كثيراً من الصوفية، وكان يقول: «صحبت الصوفية فلم استفد منهم سوى حرفين، وفي رواية سوى ثلاث كلمات قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة»[3].

وأما الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فكان يُعظم الصوفية ويرفع من قدرهم؛ لأنَّهم أئمة هدى وصلاح وخير لهذه الأمة. فقد نقل العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه الله، عن إبراهيم بن عبد الله القلانسي رحمه الله؛ أنَّ الإمام أحمد، قال عن الصوفية: «لا أعلم أقواماً أفضل منهم. قيل إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة»[4].

وقد كان الإمام أحمد قبل ذلك يحذر ابنه عبد الله من صحبتهم فلما سبر

---

(١) كشف الخفا ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: ١/٣٤١.

(٢) التصوف في تراث شيخ الإسلام: ٣٩.

(٣) تأييد الحقيقة العلية، للسيوطي: ١٣.

(٤) غذاء اللباب شرح منظومة الآداب: ١/١٢٠، نقلاً عن حقائق عن التصوف: ٣٦٣.

مذهبهم، وعرف أحوالهم، ومنـــزلتهم أمره بملازمتهم والاقتداء بهم، وفيما يلي قصته مع ابنه: «كان الإمام أحمد رحمه الله قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله رحمه الله: «يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه، فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم، أصبح يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة»[1].

بل أكثر من هذا فالإمام أحمد يُعد في نظر الكثيرين، من كبار الصوفية، لأنَّه رحمه الله يعدُّ من الأوائل الذين تكلموا بعلوم الصوفية كما صرح بذلك شيخ الإسلام في مجموع فتاويه بقوله: «وقد نُقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما[2].

وهذا ما يفسر إدراج الصوفية الإمام أحمد ضمن تراجمهم وطبقاتهم مثل: (حلية الأولياء) لأبي نعيم، و(الطبقات الكبرى) للشعراني، و(الكواكب الدرية) للمناوي، و(التذكرة) لفريد الدين العطار...

وها هو ذا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله يتحدث في كتابه (المنقذ من الضلال) عن الصوفية، وعن سلوكهم، وطريقتهم بعد أن خبرها وخاض غمارها فيقول: «علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأنَّ سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو اجتمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء وعلم الواقفين

---

(١) تنوير القلوب: ٤٣٤.

(٢) مجموعة الفتاوى، لشيخ الإسلام: ٥/١١.

على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم، وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإنَّ جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»[1].

وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ): «قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم، ومما يدلك على ذلك، ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات، فإنه فرع عن قربات الحق لهم، ورضاه عنهم، فلو كان العلم من غير عمل، يُرضي الحق تعالى كل الرضا، لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم، ولو لم يعملوا بعلمهم، هيهات هيهات»[2].

وقد تحدث شيخ الإسلام (٧٢٨هـ): عن التصوف في مجموع فتاويه فقال: «وقد نُقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد ابن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما»[3].

وقال: «فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوغون للسالك، ولو طار في الهواء، أو مشى على الماء،

---

(١) المنقذ من الضلال: ٣٧٨.

(٢) نور التحقيق في حجة أعمال الطريق: ١٠١.

(٣) مجموعة الفتاوى: ٥/١١.

أنْ يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم»[1].

وقال الشيخ تاج الدين السبكي (٧٧١هـ) رحمه الله في كتابه: (معيد النعم ومبيد النقم)، متحدِّثاً عن الصوفية: «حَيَّاهمُ الله وبيَّاهم، وجمعنا في الجنة نحن وإياهم. وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم؛ لكثرة المُتلبِّسين بها، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم؛ لأنَّه لا حدَّ لهم يعرف. والصحيح صحته، وأنَّهم المعرضون عن الدنيا، المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة»[2].

ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: والحاصل أنَّهم أهل الله وخاصته؛ الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويُستنزل الغيث بدعائهم رضي الله عنهم»[3].

أما الإمام الشاطبي (ت٧٩٠هـ): حيث عقد العزم على التأليف في التصوف ثم أعجلته المنية قبل تحقيق المراد، يقول رحمه الله: «وفي غرضي إن فسح الله في المدة وأعانني بفضله ويسر لي الأسباب أن ألخص في طريقة القوم أنموذجاً يستدل به على صحتها وجريانها على الطريقة المثلى، وأنَّه إنَّما داخلتها المفاسد وتطرقت إليها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح، وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي ولا فهم لمقاصد أهلها، وتقوَّلوا عليهم ما لم يقولوا به، حتى صارت في هذا الزمان

---

(١) مجموعة الفتاوى: ١٠/٥٠٠.

(٢) معيد النعم ومبيد النقم: ١١٩.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٠.

الأخير كأنها شريعة أخرى غير ما أتى به محمد ﷺ، وأعظم من ذلك أنَّهم يتساهلون في اتباع السنة، ويرون اختراع العبادات طريقاً للتعبد صحيحاً، وطريقة القوم بريئة من هذا الخباط بحمد الله»[1].

ويشيد رحمه الله بمذهب الصوفية بقوله: «وقد بنوا نحلتهم على اتباع السنة، وهم باتفاق أهل السنة، صفوة الله من الخليقة»[2].

يقول ابن خلدون: «هذا العلم - يعني التصوف- من علوم الشريعة الحادثة في الملّة؛ وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة»[3].

قال الإمام السيوطي[4] رحمه الله: «أما علم القلب ومعرفة أمراضِه من

---

(١) الاعتصام: ٩٠/١.

(٢) الموافقات: ٢٣٩/٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ٩٨٩/٣.

(٤) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين أبو الفضل. ولد سنة (٨٤٩هـ) أصله من أسيوط، ونشأ بالقاهرة يتيماً. وقضى آخر عمره في بيته سنة (٩١١هـ) كان عالماً شافعياً مؤرخاً أديباً وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه والفقه واللغة. كان سريع الكتابة في التأليف، ينظر: شذرات الذهب: ٥١/٨، والضوء اللامع: ٦٥/٤، والأعلام: ٧١/٤.

الحسد والعُجب والرياء، فقال الغزالي[1]: فرض عين».

قال اللقاني[2] في جوهرة التوحيد:

وأمر بعرف واجتنب نميمة وغيبة وخصلة ذميمة

كالعجب والكِبر وداء الحسد وكالمراء والجدل فاعتمد

- وذكر الشارح البيجوري[3] عند قولهِ وخصلة ذميمة: أي واجتنب

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي بتشديد الزاي ولد سنة (٤٥٠هـ). نسبته إلى الغزال (بالتشديد) فقيه شافعي أصولي متكلم من أئمة التصوف رحل إلى بغداد، فالحجاز، فالشام، فمصر وعاد إلى طوس، توفي سنة (٥٠٥هـ) من مصنفاته البسيط والوسيط والخلاصة وكلها في الفقه (تهافت الفلاسفة) وإحياء علوم الدين: ينظر: طبقات الشافعية: ٤/١٠١-١٨٠ والأعلام للزركلي: ٢٤٧/٧؛ والوافي بالوفيات: ٢٧٧/١.

(٢) إبراهيم بن حسن بن محمد بن هارون، اللقاني المصري المالكي، فقيه، محدث مشارك في جميع أنواع العلوم. أخذ عن أعلام منهم: صدر الدين المنياوي وعبد الكريم البرموني وسالم السنهوري وغيرهم، وعنه ابنه عبد السلام والخرشي وعبد الباقي الزرقاني ويوسف الفيشي وأحمد الزريابي وغيرهم توفي بقرب العقبة عائداً من الحج سنة (١٠٤١هـ). من تصانيفه: الجوهرة، ونصيحة الإخوان في شرب الدخان، وحاشية على مختصر خليل، ينظر: شجرة النور الزكية: ٢٩١، فهرس الأعلام: ٨٧١/٤، وخلاصة الآثر: ٦/١.

(٣) إبراهيم بن محمد أحمد الباجوري شيخ الجامع الأزهر فقيه شافعي، ولد في الباجور (أو هي البيجور) إحدى قرى المنوفية بمصر سنة (١١٩٨هـ)، وتعلم في الأزهر، توفي سنة (١٢٧٧هـ) من مؤلفاته: (التحفة الخيرية على الفوائد الشنشورية في الفرائض) و(تحفة المريد على جوهرة التوحيد) وحاشية على شرح ابن قاسم، ينظر: معجم المؤلفين: ٢٤٩/١، ومعجم المطبوعات: ٥٠٧، وإيضاح المكنون: ٢٤٤/١.

كل خصلة ذميمة شرعاً، وإنّما خصّ المصنف ما ذكرهُ بعد، اهتماماً بعيوب النفس، فإنَّ بقاءها مع إصلاح الظاهر كلبس ثياب حسنة على جسم ملطخ بالقاذورات، ويكون أيضاً كالعجب ورؤية العبادة، واستعظامها كما يعجب العبد بعبادتهِ، والعالم بعلمهِ فهذا حرام، وكذلك الرياء فهو حرام غير مفسد للطاعة، ومثل العُجب والظلم والبغي والكِبر والحسد والمراء والجدل[1].

- يقول ابن عابدين[2] في حاشيتهِ: «إن علم الإخلاص والعُجب والحسد والرياء فرض عين، ومثلها غيرها من آفات النفوس كالكِبر والشح والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمُداهنة والاستكبار عن الحق والمكر والمخادعة والقسوة وطول الأمل ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات من (الإحياء)، قال: ولا ينفك عنها بشر فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسهُ محتاجاً إليه» ثم يقول: «وإزالتها فرض عين، ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها، وأسبابها، وعلاماتها، وعلاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه»[3].

---

(١) ينظر: شرح جوهرة التوحيد: ١٢٠-١٢٢.

(٢) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين. دمشقي. ولد سنة (١١٩٨هـ)، كان فقيه الديار الشامية، وإمام الحنفية في عصره توفي سنة (١٢٥٢هـ). صاحب، رد المحتار على الدر المختار - المشهور بحاشية ابن عابدين. خمسة مجلدات وابنه محمد علاء الدين (١٢٤٤-١٣٠٦هـ) المشهور أيضاً بابن عابدين صاحب (قوة عيون الأخيار) الذي هو تكملة لحاشية والده السابقة الذكر: ينظر: الأعلام للزركلي: ٢٦٧/٦؛ ومقدمة تكملة حاشية ابن عابدين المسماة قرة عيون الأخيار ط عيسى الحلبي: ٦-١١.

(٣) حاشية ابن عابدين: ٣١/١.

- يقول صاحب الهدية العلائية علاء الدين بن عابدين: «وقد تظاهرت نصوص الشرع والإجماع على تحريم الحسد، واحتقار المسلمين، وإرادة المكروه بهم، والكبر والعجب والرياء، والنفاق وجملة الخبائث من أعمال القلوب، بل السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنهُ مسؤولاً، مما يدخل تحت الاختيار»[1].

- يقول صاحب مراقي الفلاح: «لا تنفع الطهارة الظاهرة إلا مع الطهارة الباطنة بالإخلاص والنـــزاهة عن الغِل والغش والحقد والحسد، وتطهير القلب عما سوى الله من الكونين، فيعبدهُ لذاته لا لعلة مفتقراً إليه، هو يتفضل بالمن بقضاء حوائجه المضطر بها عطفاً عليه، فتكون عبداً فرداً للمالك الأحد الفرد، لا يسرقك شيء من الأشياء سواه، ولا يستملك هواك عن خدمتك إياهُ»[2].

قال الطيبـــي[3]: «لا ينبغي للعالم - ولو بحر بالعلم حتى صار واحد أهل زمانه أن يقنَع بما علمهُ، وإنما الواجب عليه الاجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الطريق المستقيم، حتى يكون ممن يحدِّثهم الحق في سرائرهم من شدة صفاء باطنهم، ويخلص من الأدناس، وأن يجتنب ما شاب علمهُ من كدورات الهوى

---

(١) الهداية العلائية: ٣١٥.

(٢) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح: ٧١/٧٠.

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين، الطيبـــي. مـــن علمـــاء الحـــديث والتفسير والبيان. قال ابن حجر: كان آية في استخراج الدقائق من القرآن والـــسنن. وكان ذا ثروة من الإرث والتجارة فلم يزل ينفقه في وجوه في الخيرات إلى أن كان في آخر عمره فقيراً، وكان شديد الرد على المبتدعة والفلاسفة، توفي سنة (٧٤٣هـ)، من تصانيفه: التبيان في المعاني والبيان، والخلاصة في أصول الحديث، وشـــرح مـــشكاة المصابيح، والكاشف عن حقائق السنن النبوية، ينظر: شذرات الـــذهب: ١٣٦/٦، والدرر الكامنة: ٦٨/٢، والأعلام: ٢٨٠/٢، ومعجم المؤلفين: ٥٣/٤.

وحظوظ النفس الأمارة بالسوء حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه، والاقتباس من مشكاة أنوار النبوة» ثم يضيف: «إنَّ الله تعالى أمرنا بترك المعاصي الظاهرة كالكذب وأُكل الحرام والغيبة والنميمة، وكان من الوجوب تركها والاتصاف بأضدادها، كذلك أمرنا بترك المعاصي الباطنة كالرياء والحقد والحسد وغيرها، وكان من الوجوب الاتصاف بأضدادها، فالواجب ترك المعاصي الظاهرة والباطنة.. يقول الله ﷻ: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وهذا المنهج هو ما عليه سلف الأمة وأئمة الإسلام[1].

وإذا كان التصوف هو المنهج الصحيح في ترك المعاصي الظاهرة والباطنة، على هدي القرآن الكريم وسيرة المصطفى ﷺ وصحابته وسلف الأمة من العلماء والصالحين ورثة علم النبي ﷺ قولاً وفعلاً وحالاً بسند متصل إليه، فأصبح الأخذ بهذا العلم واجباً شرعياً من باب القاعدة الشرعية (ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب) والله أعلم...

مناقشة بعض العلماء والأئمة الأعلام لبعض التصرفات المحسوبة على التصوف التي ليست منه:

سُئل الشيخ عز الدين ابن عبد السلام عن جماعة من أهل الخير والصلاح والورع يجتمعون في وقت فينشدُ لهم مُنشد: فأجاب: «الرقص بدعة لا يتعاطاه إلا ناقص عقل، ولا يصلح إلا للنساء» ويدّعي بعض الصوفيّة أن الإمام العز ابن عبد السلام كان يتواجد ويرقص في مجالس السماع، ويتّخذُون من ذلك حجّة على إباحة الرقص في مجالس الذكر عندهم. والحقيقة أنَّ الذي

(١) تنوير القلوب: ٤٤-٤٥.

ادّعوه غير صحيح، وكل من يعرف سيرة الإمام العز ابن عبد السلام، يدرك تماماً أن هذا الكلام كذب عليه، وأن إلصاق هذه التهمة بهذا الإمام إنّما هو للتغرير بالعامّة من الناس[1].

وأكبر دليل على كذب من يدعي الصوفية وهي وأهلها منه براء، أنَّ العز رحمه الله، قد نصَّ في أهم كتبه على تحريم ذلك فقال: وأما الرقص والتصفيق فَخِفَّةٌ ورعونة، مُشْبِهَةٌ لرعونة الإناث لا يفعلها إلا راعن أو متصنع كذّاب، كيف يتأتى الرقص المتَّزن بأوزان الغناء، ممن طاش لُبُّه وذهب قلبه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». متفق عليه، و لم يكن واحد من هؤلاء الذين يقلدونهم يفعل شيئاً من ذلك[2].

وهذا علم آخر في الأمة هو الإمام القرطبي رحمه الله، وقد ذكر في تفسيره القيم للقرآن الكريم إنَّ طريقة الصوفيّة أن يكون الشيخ منهم يوماً وليلة، وشهراً، مفكّراً، لا يفتر، فطريقةٌ بعيدة عن الصواب، غير لائقة بالبشر، ولا مستمرة على السنن[3].

ويقول رحمه الله: وهذا السجود المنهيّ عنه، قد اتخذه جُهَّالُ المتصوّفة، عادةً في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أَخذه الحال بزعمه، يسجد للأقدام لجهله، سواء أكان للقبلة أم غيرها، جهالة منه، ضَلَّ سَعْيُهم، وخاب عملهم[4].

نقل القرطبي في تفسيره عن إمام وعلم من أعلام التفسير والنحو والقراءات

---

(١) ينظر: المعيار المُعَرّب: ١١/٢٩.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: ٢/١٨٦.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/٣١٥.

(٤) المصدر نفسه: ١/٢٩٣-٢٩٤.

ابن عطيّة الإمام المشهود له بالعلم والورع قوله: استدلَّ العُبَّادُ في تأديب أَنفسهم بالبأساء في تفريق الأَموال، والضراء في الحمل على الأَبدان بالجوع والعُري بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]. قُلتُ - أي: الإمام القُرطبي: هذه جهالة ممن فعلها، وجعل هذه الآية أصلاً لها، هذه عقوبة من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها، ولا يجوز لنا أن نمتحن أَنفسنا ونكافئها قياساً عليها، فإنَّها المطية التي نبلغ عليها دار الكرامة، ونفوز بها من أَهوالِ يومِ القيامة، وفي التنـــزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فأمرَ المؤمنين بما خاطب به سيد المرسلين، وكان رسول الله ﷺ وأَصحابه يأكلون الطيبات، ويلبسون أحسنَ الثياب، ويتجمّلونَ بها، وكذلك التابعون بعدهم إلى هلمّ جراً.

ولو كان كما زعموا واستدلوا، لما كان في امتنان الله تعالى بالزّروع والجنّات وجميع الثمار والنبات والأنعام التي سخرها، وأَباح لنا أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها، إلى غير ذلك مما امتنّ به، كبير فائدة، فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول الله ﷺ وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٦/٤٢٤-٤٢٥.

وهذا الحافظ ابن حجر إمام زمانه في الحديث يقول عن القرطبي رحمه الله: وأما ما ابتدعه الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب إلى الخير، حتى لقد ظهرت من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان، حتى رقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقح بقوم منهم، إلى أن جعلوها من باب القرب، وصالح الأعمال، وأن ذلك يثمر سني الأحوال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة، وقول أهل المخرفة، والله المستعان.

قال الحافظ ابن حجر: وينبغي أن يعكس مرادهم ويقرأ سيء الأحوال[1].

سئل الإمام أبو بكر الطُّرْطوشي رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ فاجاب رحمه الله إنَّ اجتماع جماعة من الرجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد ﷺ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيءٍ من الأَديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد، حتى يقع مغشيّاً عليه، ويحضرون شيئاً يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين، يرحمكم الله.

فأجاب رحمه الله: يرحمك الله، مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله، وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد، فأَوّل مَنْ أَحدثه أصحاب السامريّ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دين الكفار، وعبّاد العجل.

وأما القضيب فأوّل مَن اتخذه الزَّنادقة، ليشغلوا به المسلمين عن كتابِ الله تعالى. وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه، كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوّابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها،

---

(١) ينظر: فتح الباري: ٢/٤٤٢.

ولا يحلّ لأَحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين، وبالله التوفيق[1].

ومن صور من أنكر على الصوفية الباطلة الإمام الذهبي، فتكلم في بيان مخالفتهم لطريقة أهل الزهد والتنسك من المتقدمين، وتمحيص ما عند المتقدمين من خلل: قال رحمه الله في ترجمة (حاتم الأصم) بعد أن ذكر قول حاتم الأصم: لو أنَّ صاحب خبر جلي إليك لكنت تتحرز منه وكلامك يعرض على الله لا تحترز. فقال الذهبي: قلت: هكذا كانت نكت العارفين وإشاراتهم لا كما أحدث المتأخرون من الفناء والمحو والجمع الذي آل بجهلتهم إلى الاتحاد وعدم السوى[2].

وقال الذهبي رحمه الله: قال ابن هلال: جلست عنده. يعني: أبا الجناب أحمد ابن عمر الخوارزمي. في الخلوة مراراً، وشاهدت أموراً عجيبة، وسمعت من يخاطبني بأشياء حسنة.

فقال الذهبي معلقاً: قلت: لا وجود لمن خاطبك في خلوتك مع جوعك المفرط، بل هو سماع كلام في الدماغ الذي قد طاش وفاش، وبقي قرعة كما يتم للمبرسم والمغمور بالحمى والجنون، فاجزم بهذا، واعبد الله بالسنن الثابتة تفلح[3].

قال الذهبي: قلت أما (الإحياء) ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية نسأل الله علماً نافعاً تدري ما العلم النافع هو ما نزل به القرآن،

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١/٢٣٧-٢٣٨.

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء: ١١/٤٨٧.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢/٣٦٨.

وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، و لم يأت نهي عنه قال عليه السلام من رغب عن سنتي فليس مني فعليك يا أخي بتدبر (كتاب الله) وبإدمان النظر في (الصحيحين) و(سنن النسائي) و(رياض) النواوي و(أذكاره) تفلح وتنجح، وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضات، وجوع الرهبان، وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوثاه بالله اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم[1].

ويرى الباحث الأسلوب الأدبي الجم لهؤلاء الأعلام، إذ مع اختلافهم على صاحب الطريقة وأخذهم على منهجه إلا أنَّهم يعرفون لهم فضله والمثال السابق في فضل كتاب الأحياء دليل واضح عل ذلك، وهذه ألفاظه تشهد ومنها قوله، وفيه خير كثير لو لا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء.

وقال الذهبي رحمه الله عن سيد الصوفية (ابن عربي الطائي) وكان ذكياً كثير العلم كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب ثم تزهّد وتفرّد وتعبّد وتوحّد وسافر وتجرّد واهتم وأنجد وعمل الخلوات، وعلِق شيئاً كثيراً في تصوف أهل الوحدة، ومن أردأ تأليفاته كتاب (الفصوص) فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة، فواغوثاه بالله، وقد عظمه جماعة، وتكلفوا لما صدر منه ببعيد الاحتمالات[2].

ومن آراء بعض العلماء الذين ناقشوا أمر التصوف الحلولي المبتدع، الإمام ابن الحاج المالكي، أحد العلماء الذين أكثر النقل عنهم الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري، من أشهر كتبه كتاب المدخل، والذي رد فيه كثير من بدع

---

(١) المصدر نفسه: ٣٢٢/١٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٨/٢٣.

الصوفية، فقال رحمه الله في كتابه، وهو يتكلم عن الصوفية وبدعة الغناء والرقص التي أحدثت.

وقد ذكر أن بعض الناس عمل فتوى في سنة إحدى وستين وستمائة ومشى بها على الأربع مذاهب ولفظها: «ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين وعلماء المسلمين وفقهم الله لطاعته وأعانهم على مرضاته في جماعة من المسلمين وردوا إلى بلد فقصدوا إلى المسجد وشرعوا يصفقون ويغنون، ويرقصون تارة بالكف، وتارة بالدفوف والشبابة فهل يجوز ذلك في المساجد شرعاً أفتونا مأجورين يرحمكم الله تعالى؟

فقالت الشافعية: السماع لهوٌ مكروه يشبه الباطل من قال به ترد شهادته والله أعلم.

وقال المالكية: يجب على ولاة الأمور زجرهم وإخراجهم من المساجد حتى يتوبوا ويرجعوا والله أعلم.

وقالت الحنابلة: فاعل ذلك لا يصلى خلفه ولا تقبل شهادته ولا يقبل حكمُهُ، وإن كان حاكماً وإن عقد النكاح على يده فهو فاسد والله أعلم.

وقالت الحنفية: الحصر التي يرقص عليها لا يصلى عليها حتى تغسل والأرض التي يرقص عليها لا يصلى عليها حتى يحفر ترابها ويرمى، والله أعلم»[1].

أما الإمام المفسر أبو حيان الأندلسي فقال رحمه الله في كتابه (التفسير الكبير المسمّى بالبحر المحيط) وفي ذيله أيضاً المسمّى النهر المادّ، وكما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ﴾ [المائدة: ١٧]، «ومِنْ بعضِ اعتقادِ النصارى استنبطَ مَنْ تستّر بالإسلام ظاهراً

(١) المدخل: ٣/٩٩.

وانتمى إلى الصوفية حُلولَ الله تعالى في الصور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدهم إلى القول بالاتحاد والوحدة، كالحلاج والشوذي وابن أحلى وابن عربي المقيم بدمشق وابن الفارض، وأتباع هؤلاء كابن سبعين وابن المطرّف المقيم بمرسية والصفّار المقتول بغرناطة وابن لباج وابن الحسن المقيم بلوزقة، وممن رأيناه يُرمى بهذا المذهب الملعون العفيف التلمساني وله في ذلك أشعار كثيرة، وابن عيّاش المالقي الأسود القطيع المقيم بدمشق، وعبد الواحد بن المؤخر المقيم بصعيد مصر والأيكي العجمي الذي كان تولى المشيخة بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر وأبو يعقوب بن مبشّر تلميذ التستري المقيم بحارة زويلة بالقاهرة، والشريف عبد العزيز المنوني وتلميذه عبد الغفّار القوصي؛ وإنما سردت أسماء هؤلاء نصحاً لدين الله، يعلم الله ذلك، وشفقة على ضعفاء المسلمين ليحذروهم فهم شرٌّ من الفلاسفة الذين يكذّبون الله ورسوله ويقولون بقدم العالم، وينكرون البعث؛ وقد أُولِعَ جهلة ممن ينتمي للتصوف بتعظيم هؤلاء، وادّعائهم أنهم صفوة الله وأولياؤه، والردّ على النصارى والحلولية والقائلين بالوحدة هو من علم أصول الدين»[1].

وقال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ولقد يظهر من هؤلاء المنتسبة إلى الصوف أشياء من ادعاء علم المغيبات والاطلاع على علم عواقب أتباعهم وأنَّهم معهم في الجنة يخبرون على رؤوس المنابر ولا ينكر ذلك أحد هذا مع خلوهم من العلوم يوهمون أنَّهم يعلمون الغيب[2].

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ٣/٤٤٨.

(٢) البحر المحيط: ٤/١٤٥.

وقال رحمه الله: فلو عاش قتادة إلى هذا العصر وسمع ما أحدث هؤلاء المنسوبون إلى الصوف من الدعاوى والكلام المبهرج الذي لا يرجع إلى كتاب الله ولا إلى سنة رسوله ﷺ والتجري على الإخبار الكاذب عن المغيبات لقضي من ذلك العجب[1].

ويرى الباحث: إنَّه قد ظهر في هذا الزمان ناس ممن ينتسبون إلى الصوفية الباطلة يتسمون بالمشايخ، يلبسون ثياب شهرة عند العامة بالصلاح، ويتركون الاكتساب، ويرتبون أذكاراً لم ترد في الشريعة، ويجمعون لهم خدّاماً يجلبون الناس إليهم لاستخدامهم، ونتش أموالهم، ويذيعون عنهم كرامات، ويرون الوصول إلى الله تعالى بأمور يقررونها في خلوات، وأذكارٍ لم يأت بها كتاب منـــزل، ولا نبي مرسل، ويتعاظمون على الناس بالانفراد على سجادة، ونصب أيديهم للتقبيل، وقلة الكلام، وإطراق الرؤوس، وتعيين خادم يقول: الشيخ مشغول في الخلوة. ورسم الشيخ. قال الشيخ. الشيخ له نظر إليك. الشيخ كان البارحة يذكرك. إلى نحو هذه الألفاظ التي يحشدون بها العامة، ويجلبون بها عقول الجهلة، هذا إن سلم الشيخ من الاعتقاد الصحيح من الحلول، والقول بوحدة الوجود، فإذ ذاك: يكون بعيداً عن شريعة الإسلام، والعجب لمثل هؤلاء كيف ترتب لهم الرواتب، وتبنى لهم الرُّبط، وتوقف عليهم الأوقاف، وتخدمهم الناس مع عدولهم عن سائر الفضائل، على أننا لا ننكر أنَّه يوجد من المتصوفة الحقة الكثير من الصادقين ممن لزم طريقة السلف في الزهد والتصوف الحق واتباع السنة وإنكار البدع المحدثة، فينبغي إنصاف كل ذي حق وإعطائه حقه.

---

(١) المصدر السابق: ٢/٩٣.

وهذا إمام آخر وعَلَمٌ من الأعلام هو القاضي أبو بكر بن العربي المالكي رحمه الله الذي أثر عنه قوله: كذلك نقطع بالإنكار على كل من كَذّب، وأنكر قاعدة من قواعد الشرع، ثم قال: وأجمع فقهاء بغداد أيام المقتدر من الماليكة وقاضي قضاتها أبو عمرو المالكي على قتل الحلاّج وصلبه لدعواه الإلهية، والقول بالحلول، وقوله: أنا مع الحق. مع تمسّكه في الظاهر بالشريعة، و لم يقبلوا توبته[1].

وقال رحمه الله كلاماً نفيساً نقلاً عن الإمام القرطبي: أما طريقة بعض الصوفيّة أنْ يكون الشيخ منهم يوماً وليلة، وشهراً، مفكّراً، لا يفتر، فطريقةُ بعيدة عن الصواب، غير لائقة بالبشر، ولا مستمرة على السنن[2].

وأما في العصور المتأخرة فهذا علامة بغداد ومفتيها العلامة محمود الألوسي الذي كشف أنَّ بعض الصوفية أصحاب كذب وتدجيل، فقال وأشنع من ذلك ما يفعله أبالسة المتصوفة ومردهم، ثم إنهم - قبحهم الله تعالى - إذا اعترض عليهم بما اشتمل عليه نشيدهم من الباطل يقولون: نعني بالخمر: المحبة الإلهية، أو بالسكر: غلبتها، أو بميّة وليل وسعدى مثلاً: المحبوب الأعظم، وهو الله ﷻ، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقد تكلم بمثل هذا الكلام عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦].

ومن السماع المحرم سماع متصوفة زماننا؛ وإن خلا عن رقص، فإنَّ مفاسده أكثر من أن تحصى، وكثير ما ينشدون من الأشعار من أشنعِ ما يتلى،

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء: ١٩/٣٢٧.

(٢) أحكام القرآن: ٤/٥٧.

ومع هذا يعتقدونه قُربة، ويزعمون أنَّ أكثرهم رغبة فيه أشدهم رغبة أو رهبة[1]، وهذا من الشناعة والجهل.

وهناك من العلماء من ألف في الرد على بعض المؤلفات التي فيها التلبيس على الناس وأنكرها معظم علماء الأمة قديماً وحديثاً، ومن الأمثلة على ذلك ما ألفه الإمام برهان الدين البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ، فقد ألف هذا الإمام كتاباً فذاً فريداً سماه (تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارض وابن عربي) قال في خطبة هذا الكتاب عن ابن عربي: وكان كفره في كتابه الفصوص أظهر منه في غيره، أحببت أن أذكر منه ما كان ظاهراً، حتى يعلم حاله، فيهجر مقاله، ويعتقد انحلاله، وكفره وضلاله، وأنَّه إلى الهاوية مآله ومآبه، امتثالاً لما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

ومن أهم من ألف في الرد على الغالين والمبطلين والجاهلين في الدين الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧هـ فقد كتب كتاباً فريداً في موضوعه سماه (تلبيس إبليس) خصَّ الفرق التي خرجت عن منهج الحق والصواب وخصَّ الصوفية والمغالين منهم بفصول من الكتاب وبين تلبيس الشيطان عليهم، وكان مما ذكره في حق من ضل منهم، وكان أصل تلبيسه عليهم أنّه صدّهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات. فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم. وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنّه خلق

---

(١) ينظر: روح المعاني: ١١/٧٥.

(٢) ينظر: تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي: ٢١، والحديث في صحيح مسلم: ٢/٢٤.

للمصالح وبالغوا في الحمل على النفوس حتى إنّه كان فيهم من لا يضطجع. وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنّهم على غير الجادة، ولعله يتمثل فيه العالم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وفيهم من كان لقلّة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة، وهو لا يدري. ثم جاء أقوام يتكلمون لهم في الجوع والفقر الوساوس والحظوات وصنفوا في ذلك، وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيف وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة[1].

ثم ما زال الأمر ينمى والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً، ويتكلمون بواقعاتهم. ويتفق بعدهم عن العلماء لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سمّوه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادّعى عشق الحق والهيمان فيه كأنهم تخايلوا شخصاً مستحسن الصورة فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر والبدعة، ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء من قال بالحلول ومنهم من قال بالاتحاد. وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سنناً[2].

ثم جاء أبو عبد الرحمن السُلمي فصنف لهم كتاب السنن، وجمع لهم حقائق التفسير، فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم. وإنما حملوه على مذاهبهم. والعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن[3].

---

(١) ينظر: تلبيس إبليس: ٢٠٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٢٠٣.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ٢٠٣.

وقد أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن القزاز، قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال لي محمد بن يوسف القطان النيسابوري، قال: كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة، ولم يكن سمع من الأصم إلا شيئاً يسيراً فلما مات الحاكم أبو عبد الله بن البيع حدث عن الأصم بتاريخ يحيى بن معين وبأشياء كثيرة سواه. وكان يضع للصوفية الأحاديث[1].

وقال رحمه الله: وصنف لهم أبو نصر السّراج كتاباً سماه لمع الصوفية ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكر منه جملة إن شاء الله تعالى. وصنّف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الأحاديث الباطلة وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الأيام والليالي، وغير ذلك من الموضوع، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد. وردد فيه قول - قال بعض المكاشفين - وهذا كلام لا يصح وذكر فيه عن بعض الصوفية أنَّ الله عزّ وجلّ يتجلى في الدنيا لأوليائه[2].

ويرى الباحث: إنَّ هذه القسوة في الكلام عليهم لما أحدثوه في ذلك العصر من الغلو والبعد عن السنن والعلم الصحيح المسند المتصل والعلماء الربانيين الأعلام؛ ولعل هذه التصرفات منهم ومن أمثالهم إنّما جاءت للنكسات التي مرّت بها الأمة من غزوة المغول والتتار بلاد المسلمين وخذلان السلاطين والأمراء للناس، وانتشار الفقر والظلم، وهذه قاعدة عامة في الانتكاسات التي تصيب الأمم.

وأورد رحمه الله أموراً كثيرة عن تلبيس الشيطان لهم سأختصر بعضها، ومنها قوله رحمه الله: أخبرنا أبو منصور القزاز أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال

---

(١) ينظر: تلبيس إبليس: ٢٠٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٤.

أبو طاهر محمد بن العلاف. قال: دخل أبو طالب المكي إلى البصرة بعد وفاة أبي الحسين بن سالم فانتمى إلى مقالته، وقدم بغداد فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعاظ فخلط كلامه فحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوق أضر من الخالق. فبدّعَهُ الناس وهجروه فامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك، قال الخطيب: وصنف أبو طالب المكي كتاباً سماه قوت القلوب على لسان الصوفية، وذكر فيه أشياء منكرة مستشبعة في الصفات[1].

وقال رحمه الله: وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب الحلية. وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة غير صحيحة، ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسادات الصحابة رضي الله عنهم. فذكر عنهم فيه العجب وذكر منهم شريحاً القاضي والحسن البصري وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وكذلك ذكر السلمي في طبقات الصوفية وإبراهيم بن أدهم ومعروفاً الكرخي وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد[2].

فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أنَّ الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف على ما سيأتي ذكره وصنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء، والقبض، والبسط، والوقت، والحال والوجد والوجود، والجمع، والتفرقة، والصحو، والسكر، والذوق، والشرب، والمحو، والإثبات، والتجلي، والمحاضرة، والمكاشفة، واللوائح، والطوالع، واللوامع، والتكوين، والتمكين والشريعة، والحقيقة، إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره

---

(١) ينظر: تلبيس إبليس: ٢٠٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٥.

أعجب منه، وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم صفة التصوف فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها سنذكر منها ما يصلح ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

ومن أهل الفقه الشيخ تقي الدين الحصني الشافعي صاحب كتاب كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، وهو من الكتب المعتمدة في المذهب الشافعي، ذكر في كتاب الزكاة، عند بيان الأصناف التي تُدفع إليهم الزكاة أن المال لا يدفع لمن يلبس ويخلط على الناس دينهم وذكر من المتصوّفة الذين قد اشتهر عنهم أنهم من أهل الصلاح المنقطعين لعبادة ربّهم، قد اتخذ كل منهم زاوية أو مكاناً يظهر فيه نوعاً من الذكر، وقد لفَّ عليهم من له زي القوم وربّما انتمى أحدهم إلى أحد رجال القوم كالأحمدية والقادرية، وقد كذبوا في الانتماء، فهؤلاء لا يستحقّون شيئاً من الزكاة، ولا يحلُّ دفع الزكاة إليهم، ومن دفعها إليهم لم يقع الموقع وهي باقية في ذمّته[1]. ويجب على كل من يقدر على الإنكار أن يُنكر عليهم، وإثمهم متعلّق بالحكام الذين جعلهم الله تعالى في مناصبهم لإظهار الحق، وقمع الباطل وإماتَةِ ما جاء رسول الله ﷺ بإماتته والله أعلم.

وقال الشيخ الحصني رحمه الله أيضاً في كتاب الأقضية عند ذكر من لا تُقبل شهادتهم، فلا تُقبل شهادة القمّام، وهو الذي يجمع القمّامة أي: الكناسة ويحملها، وكذا القيّم في الحمّام، ومن يلعب بالحمام يعني يُطّيرها لينظر تقلّبها في الجو، وكذا المغنّي سواء أتى الناس أو أتوه، وكذا الرّقاص كهذه الصوفيّة الذين يسعون إلى ولائم الظلمة والمكسة، ويظهرون التواجد عند رقصهم، وتحريك رؤوسهم، وتلويح لحاهم كصنع المجانين، وإذا قُرئ القرآن لا يستمعون

(١) ينظر: كفاية الأخيار: ١/١٥٩.

له، ولا يُنصتون، وإذا نعق مزمار الشيطان صاح بعضهم على بعض بالوسواس قاتلهم الله ما أزهدهم في كتاب الله، وأرغبهم في مزمار الشيطان وقرن الشيطان، عافانا الله من ذلك [1].

وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله عن بعض شيوخه المتقدمين يقول: كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة، قال: وصنف كتاباً في جواز النظر إلى المُرّاد أورد فيه حكاية عن يحيى بن معين، قال: رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها. فقيل له تصلي عليها، فقال صلى الله عليها وعلى كل مليح، قال شيخنا ابن ناصر: وليس ابن طاهر بمن يحتج به، وجاء أبو حامد الغزالي فصنف كتاب الإحياء على طريقة القوم وملأه بالأحاديث غير الثابتة عن النبي ﷺ وهو لا يعلم بطلانها، وتكلم في علم المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه. وقال: إنَّ المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله عز وجل، ولم يرد هذه المعروفات. وهذا من جنس كلام الباطنية. وقال في كتابه المفصح بالأحوال: إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق[2].

وقال رحمه الله: وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم. وإنما استحسنوها؛ لأنَّه قد ثبت في النفوس مدح الزهد، وما رأوا حالة أحسن من حالة هؤلاء القوم في الصورة ولا كلاماً أرق من كلامهم. وفي سير السلف

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢/٢٢٥.

(٢) ينظر: تلبيس إبليس: ٢٠٥.

نوع خشونة، ثم إنَّ ميل الناس إلى هؤلاء القوم شديد لما ذكرنا من أنها طريقة ظاهرها النظافة والتعبد وفي ضمنها الراحة والسماع والطباع تميل إليها. وقد كان أوائل الصوفية ينفرون من السلاطين والأمراء فصاروا أصدقاء أي: بعد أن صار التصوف حرفة وتكسباً صاحبوا الأمراء والسلاطين.

وجمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودونوها، وقد سموها بالعلم الباطن. والحديث بإسناد إلى أبي يعقوب إسحق بن حية قال سمعت أحمد بن حنبل، وقد سئل عن الوساوس والخطرات. فقال: ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون.

وقال رحمه الله: وقد ذكر أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنّه قال: حذروا من الحارث أشد التحذير، الحارث أصل البلية يعني في حوادث كلام جهم ذاك جالسه فلان وفلان وأخرجهم إلى رأي جهم ما زال مأوى أصحاب الكلام، حارث بمنزلة الأسد المرابط انظر أي يوم يثب على الناس[1].

وقال رحمه الله: بعد أن ذكر تلبيس إبليس على الصوفية في السماع والرقص والوجد: قال الفقهاء من أصحابنا لا تقبل شهادة المغني والرقاص والله الموفق.

وقال الفقيه الصالح أبو عبد الله الحفار المالكي ت ٨١١هـ: إنَّ هذه الطائفة المنتمية للتصوف في هذا الزمان، وفي هذه الأقطار، قد عظُم الضرر بهم في الدين، وفشت مفسدتهم في بلاد المسلمين ولاسيما في الحصون والقرى البعيدة عن الحضرة هنالك، يُظهرون ما انطوى عليه باطنهم من الضلال، من تحليل ما حرم الله والافتراء عليه وعلى رسوله. وبالجملة فهم قوم استخلفهم

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٧.

الشيطان على حَلِّ عُرى الإسلام وإبطاله، وهدم قواعده[1].

وهذه الأقوال التي ذكرها العلماء هي ممن أساء للتصوف وأهله من خلال بعض السلوكيات التي انتشرت عند عوام المتصوفة والسبب جهلهم بشريعة الله ورسوله وأما أهل السلوك والعمل الروحي من العلماء الربانيين وأهل الصدق فهؤلاء لهم الفضل الكبير ممن مزجوا بين تعاليم الإسلام وسلوكياته وبين الحقيقة والطريقة والآداب التي بدورها ترفع من العبد والوصول به إلى سلم الفلاح والنجاح والوصول إلى الحظوات والسادات وأهل الخير، وذلك من خلال عملهم وعلمهم بالشريعة وكتاب الله وسنة رسوله وهؤلاء هم من القليل إذا ما قيسوا بالعوام ممن ينتسب إلى أهل التصوف والسلوك.

(١) ينظر: المعيار المعرب والجامع المغرب: ٤٢/١١.